بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمده، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسِنا، ومِن سيئاتِ أعمالنَا، من يَهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسُولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن الدعوة إلىٰ الله وظيفة من أشرف الوظائف، ومَهمَّة من أنبلِ المهام، ومن أجل ذلك فقد اختص الله بها رسله وخاصةَ أوليائه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ولذا فالواجب علىٰ من فتح الله تعالىٰ عليه بهذا الفضل: أن يعلم أنه قد أَخَذ بوظيفة خير البشرية، فلابد أن يؤدي هذه الوظيفة الشريفة علىٰ الوجه الأكمل الذي يُرضِي الله تعالىٰ عنه، وأن يستشعر قيامه بعمل يُعَدُّ من أفضل الأعمال وأزكاها.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وليعلم بعظيمِ الأجر الذي سيحصل عليه جراء تعليمه للناس ونصحهم وتوجيههم لإقامة المعروف في الأرض وتقليل المنكرات.

قال ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتىٰ النملة في جحرها وحتىٰ الحوت، ليُصَلُّون علىٰ مُعَلِّم الناس الخير**»(١).

هذا وإن من أعظم الوسائل الدعوية علىٰ الإطلاق: خطبة الجمعة المباركة التي تتميز باجتماع الناس إليها، وإقبالهم علىٰ استماع الذِّكر والانقطاع عن المشاغل والأعمال العارضة، وتفريغهم أنفسهم من أجل ذلك.

وإن من توفيق الله تعالىٰ لعبده: أن يهديَه لأن يكون خطيبًا للجمعة وأن ييسر له أسباب ذلك، وذلك أعظمُ دليلٍ علىٰ أن الله تعالىٰ قد أراد به خيرًا،

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١).

لِما جُمِع له من الفضل والإحسان ما لم يكن يخطر له علىٰ بال ولم يحسب له حسابًا، وإنما هو محض امتنان وتفضل من الله الغني علىٰ عبده، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

ولذا فالواجب علىٰ المسلم إن بوَّأه الله ذلك المكان الشريف: أن يشكر لله نعمته بالثناء عليه بما يستحقه من المحامد، والشكر له بالعمل الصالح الدءوب علىٰ إعطاءِ ذلك المنبر ما يستحقه من بذل الجهد حتىٰ تكون رسالته ناجحة.

إن منتهىٰ التوفيق والسداد أن يجمع الله تعالىٰ لخطيب الجمعة أفواجًا من الناس علىٰ اختلاف أجناسهم وأوطانهم وجنسياتهم، فلعله باجتهاده بأداء هذه الرسالة الشريفة أن يصل صوته وما يبثه من الخير إلىٰ بلادٍ لم يكن يحلم أن تصل إليها دعوةٌ ولا توجيه، فيظفر بالأجر المستمر والعمل الذي لا ينقطع بسبب إخلاصه بأداء مهمته، ويكون ذلك العمل الذي أداه مستمرًّا حتىٰ بعد موته، لأنه من العلم الذي يُنتفع به.

وقد قال ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1].

وإنني في هذه الرسالة جمعت بعض الأسباب التي تعين خطيب الجمعة علىٰ أداء رسالته، ولا أعني أنني قد أحطت بالموضوع من كلِّ جوانبه، ولكنه

(١) رواه مسلم (٣٠٨٤).

جهد المقل، ومن باب التواصي بالحق بين المسلمين.

فأسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا أن ينفع بهذه الرسالة كلَّ من وقف عليها، وأن يرزقني فيها الإخلاص والقبول، وأن يجعلها من العمل الذي لا ينقطع أجره.

كما أسأله سبحانه أن يأخذ بيدي وإخواني الخطباء إلىٰ ما فيه صلاح البلاد والعباد، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.

وصلىٰ الله وسلم وبارك وأنعم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبه

سالم العجمي

٢٠/ ١/ ١٤٣١ هـ ، الموافق ٦/ ١/ ٢٠١٠ م

www.salemalajmi.com
alajmi250@hotmail.com

تحقيق الإخلاص

إن من أهم الواجبات علىٰ خطيب الجمعة: أن يكون مخلصًا بعمله لله رب العالمين، وأن يجاهد نفسه بتحقيق هذا الأصل الذي لا يصحُّ العمل إلا به، فإنه لا يخفىٰ أن شرطي قبول العمل هما: الإخلاص لله رب العالمين، وصحة الاتباع للنبي ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح المقبول ما كان خالصًا لله، صوابًا موافقًا لسنة النبي ﷺ.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: «هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنة»[1].

والإخلاص أشد شيءٍ علىٰ النفس؛ لأنه ليس لها فيه نصيب، وقد قال بعض

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

السلف: الإخلاص ألا تطلب علىٰ عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه.

وعلىٰ قدر ما يكون الخطيبُ مخلصًا فيما يلقيه علىٰ الناس علىٰ قدر ما يكتب الله تعالىٰ له القبول، مع أنه ليس بالضروري أن يرىٰ أثر خطبته وكلامه علىٰ الناس من أول مرة، لأن ما يُؤمر به المسلم المتعلم هو تبليغ الدعوة وتحقيقُ هداية البيان والإرشاد.

أما مسألة هداية الناس واستقامتهم علىٰ ما سمعوه فهذا مردُّه إلىٰ الله، ومفاتيحُ القلوب بين يديه سبحانه، واللهُ يخلق ما يشاء ويختار وهو أعلم بمن اتقىٰ.

هذا وإنَّ من أعظم دلائل الإخلاص: تأثر الخطيب بخطبته، وأن يعيش معها بروحه وقلبه، وتمنيه الخير للمسلمين مما يعكس لهم صدقه وحرصه علىٰ الخير، وعلىٰ قدر تأثره بما يقوله علىٰ قدر ما يكون له الأثر البالغ فيمن سمعه.

قال علي بن الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ **لأبيه**: «يا أبت، ما أحلىٰ كلام أصحاب محمدﷺ! فقال: يا بني، وتدري لِـمَ حلا؟ قال: لا يا أبت، قال: لأنهم أرادوا الله به»[1].

وقال ابن لعمر بن ذر لأبيه: « ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت يا أبت سمعت البكاء من هاهنا وهاهنا؟، فقال: يا بني

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٣).

ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلىٰ»[1].

وليحذر الخطيب من الرياء، أو أن يبذل عمل الآخرة وهو يريد به الدنيا، فإن ذلك مؤذِنٌ بذهاب البركة وحلول النقمة.

قال ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يُبتغىٰ به وجه الله تعالىٰ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة** -يعني: ريحها-»[2].

وقال ﷺ: «**إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال:جريء! فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.**

ورجل تعلَّم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال:عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحب أن يُنفَق فيها

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ١١٠).

(٢) رواه أبو داود (٣١٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٥).

إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار»[1].

فليتق الله الخطيب أن يجعل عمل الآخرة العزيزة وسيلة للحصول علىٰ الدنيا الدنيئة، فيخسر آخرته بسبب ذلك وقد لا يحصل له من الدنيا ما كان يؤمله.

ومن أمثلة ذلك: من يوظف خطبة الجمعة لتكثير أتباعه أو لمآرب سياسية كاستغلالهم لدعمه في الانتخابات وغير ذلك.

فالواجب علىٰ المسلم التقي: أن ينزِّه منبر المسجد الذي يُدعىٰ من خلاله إلىٰ الله ﷻ من أن يخوض من خلاله في ألاعيب السياسة لجني الأصوات التي يود الاستكثار بها، حتىٰ يحدوه ذلك إلىٰ التنازل عن كثير من مبادئه فيتكلم بما ليس هو بمقتنع به أصلًا، أو أن يكون الدافع من وراء خطبته التوصل من خلالها إلىٰ ربح مادي.

وليتأمل العاقل الفرق بين دعوته الناس وهو يريد وجه الله فيأخذوا عنه ويتعلموا منه ويبلِّغوه لمن جالسوه، أو ينقلوه إلىٰ بلدانهم وأهليهم -إذا كانوا من بلاد أخرىٰ- فينمو عملُه ويثمر، ولربما يتنامىٰ ويستمر حتىٰ بعد موته لأنه كان مخلصًا به، وبين ذلك المرائي أو الذي أراد بكلامه شيئًا من متاع

(١) رواه مسلم (٣٥٢٧).

الدنيا الزائل وقد توسَّل إليه من خلال جعله الشريعة سبيلًا إلىٰ ذلك، فأيُّ أجرٍ يُطمَعُ به وأي علمٍ يُنتفَعُ به بعد موته.

فيا لمُنتهىٰ الخسارة والغبن، علىٰ أنه ليس بالضروري أن يحصل له ما أمَّله وقد جعلَ دينَ الله وشرعَه وسيلةً للتوصل إليه، فقد يدركه الموت ولم يَتِمّ له ما أراد، وقد يعيش طويلًا ولا يظفرُ بما طمح إليه.

وبيان ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء:١٨].

فقد أخبر الله سبحانه أنَّ ما كلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء، وأن مأواه في الآخرة جهنم يصلاها ويدخلها حتىٰ تغمره من جميع جوانبه، ويكون مذمومًا علىٰ سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني علىٰ الباقي، ومبعدًا مقصيًّا حقيرًا ذليلًا مهانًا[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ﴾ الدنيا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعىٰ، ونسي المبتدأ أو المنتهىٰ، أنَّ اللهَ يعجِّل له من حطامِها ومتاعِها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاعٌ غيرُ نافعٍ ولا دائمٍ له، ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا ﴾، أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾، أي: في

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٣).

حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة»[1].

فالواجب علىٰ الخطيب: أن يخلص في عمله لله ﷻ، وأن يجاهد في ذلك أشد المجاهدة، وليعلم أنَّ العمل الذي لا تنقطع بركته هو ما كان لله خالصًا، ولسنةِ النبيﷺ موافقًا.

❊ ❊ ❊

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٥٥).

التذللُ لله والتبرؤُ من الحول والقوة

يجب علىٰ الخطيب أن يكون مقبلًا علىٰ خطبته وهو بغاية الذل لله رب العالمين، وأن يتبرأ من حوله وقوته، وأن يعلم أنه لا يملك لنفسه قوةً ولا تحويلًا إلا بإذن الله سبحانه، فإنه إن فعل ذلك كان ذلك سبيلًا لتوفيق الله ﷻ له، وأن يفتح عليه سبحانه -إن شاء- فتحًا لم يكن يخطر له علىٰ بال.

والواجب علىٰ الخطيب المخلص: الحذر من أن تعجبه نفسه، أو أن يغتر بما يظنه بنفسه من طلاقة لسان أو تركيب عبارة، فلعله إن دخل العُجب إلىٰ نفسه أن يغلق دونه بابُ التوفيق، ويُفتَح عليه بابُ الخذلان فيبوء بالخسران.

وقد كان النبي ﷺ وهو في أشرف مقامات الرسالة إذا خرج إلىٰ الصلاة يخرج متذللًا متواضعًا، لأن هذا الوصف من أعظم السبل الموصلة إلىٰ التوفيق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خرج رسول الله ﷺ للاستسقاء متذللًا متواضعًا متخشعًا متضرعًا»[1].

فمن كان يريد التوفيق فلينبذ الغرور والعجب، فإنه بابٌ عظيم لنفرة

(١) رواه الترمذي (١٥٢١)، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٦٩).

قلوب الناس ممن اتصف به، فإن بعض الخطباء مع الأسف الشديد إذا خطب فإنك تستشعر من خطبته أنه لا يرىٰ الناس شيئًا، وكأنه حوىٰ علوم الدنيا!

فتجده يتكلم في كل شيء، ويحلل كل واقعة، ويفند كل حدث، ويتكلم بكل تخصص، ويفرض رأيه علىٰ الناس -وأقصد بذلك الرأي المجرد عن دليل يسنده-، وكأن ما قاله هو الحق الذي لا جدال فيه، بل وتعلوه حدة في صورةٍ تنبئُك برفضه لكل ما خالفه من الآراء.

فلا يحسُن بالخطيب ولا يجمُل به أن يتكلم بهذه الحدة التي يملؤها الغرور والعجب، ولا أقصد بحدة الصوت: رفعه، فإن رفع الصوت وعلوه من مقتضيات الخطبة في الغالب، ولكن أقصد الحدة في الطرح بما لا يسنده دليل شرعي.

وليكن للخطيب الناصح أسوةٌ في إمامه ومتبوعه محمدﷺ حيث بلغ بالتواضع ذروته.

قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، كُل -جعلني الله فداك- متكئًا فإنه أهون عليك، فأحنىٰ رأسه حتىٰ كاد أن تصيب جبهته الأرض، وقال: «**بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**»[1].

فمن كان مقتديًا بالنبي ﷺ فليقتدِ به في كل أحواله، لاسيما حين العمل

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٦٨٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٤).

بوظيفته العظمىٰ من دعوته الناس إلىٰ الله ﷻ.

ولتثق أخي الخطيب أنك بتواضعك لله ﷻ وتذلُّلك له سبحانه، وقربك من الناس لتبلغهم دين الله تعالىٰ، أنَّ الله سيرفعك بذلك ويفتح عليك من أبواب البر والخيرات، وقد قال ﷺ: «**ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[1].

ولتحذر أشدَّ الحذر من الإعجاب بالنفس، فإنه شهوةٌ خفيةٌ وداءٌ كامنٌ كُمون النار في الحجر، وإياك والاغترارَ بالقوة والإمكانيات كحلاوةِ الأسلوب وطلاقةِ اللسان وترتيبِ العبارات، وابرأ إلىٰ الله من حولك وقوتك، فإن مَن وكله اللهُ إلىٰ نفسه هَلَك وأَهلَك.

قال ﷺ: «**لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم أكثر من ذلك؛ العجب**»[2].

* * *

(١) رواه مسلم (٤٦٨٩).

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل»، وحسنه الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» (٦٥٨).

قبل ارتقاء المنبر

ينبغي للخطيب الموفق أن يقوم مبكرًا لخطبة الجمعة، من أجل ترتيب أفكاره وتهيئة نفسه لارتقاء المنبر، ولا ينبغي له ألا يستيقظ إلا علىٰ وقت الخطبة، فيصعد المنبر وكأنه قام للتوِّ من نومه، فإن هذا يعكس لدىٰ المصلين أن الخطيب غير مهتم بخطبته، أو علىٰ أقلِّ تقدير أن يكون لهم قدوةً في تأخُّرِه عن الاستعداد لهذا الاجتماع العظيم.

ولسنا نعني بذلك أنه لم يحضِّر خطبته ويعدّها، فإنه إن جمع لتأخره في نومه أن تخلف عن تحضير خطبته فهذه سلبية أخرىٰ، ولكننا نقصد أنّه حتىٰ ولو كان قد حضَّر خطبته فإنه ينبغي له أن يستيقظ قبل الجمعة بوقت كافٍ حتىٰ لا يبدو إذا ارتقىٰ المنبر وكأنه قام من نومه للتو، فإن هذا يعكس عند الناس عدم توقير خطيبهم لهذا الحدث المهم فيصيبهم بشيء من الإحباط.

كما ينبغي للخطيب أن يهتم بحسن هندامه، وأن يتجمَّل لهذا الاجتماع العظيم، فإنَّ العيون سترمقه وهي تستشعر الاقتداء بحسن صنيعه أو النقد لما يفوته من ذلك، وقد كان السلف يهتمون بهذا الشأن غاية الاهتمام، توقيرًا لما سيذكرونه من مسائل العلم، ولكونهم في مقام القدوة، ومن ذلك ما جاء عن أبي سلمة الخزاعي قال: كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج يحدِّث،

توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقِّر به حديث رسول الله ﷺ[1].

* * *

(١) «الجامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٣٤).

الناسُ أمانةٌ في عنقك

لابد أن يوقن الخطيب أن الناس أمانة في عنقه، فإذا أيقن بذلك وجب عليه أن يهتم بخطبته غاية الاهتمام، ويُعنىٰ عناية فائقة فيما سيقدمه لهم وما سيطرحه بين أيديهم.

وليثق أن من بين الحضور جمعًا غفيرًا سيأخذون ما تكلم به علىٰ جهة التسليم، وسيعملون به ويتناقلونه بينهم، وهذا ما يجعله دائم التمحيص لما يتكلم به وما ينبغي أن يُعرض عنه.

فإن كثيرًا من المسلمين نظرًا لضعف العلم الشرعي وقلة بحثه بين فئات المجتمع تراهم يريدون أن يأخذوا الحكم الشرعي بأوجز عبارة ودون إطالة، وأعظم من يتلقون منه هذه المعلومات هو الخطيب الذي يرونه في مصاف العلماء وإن كان طالب علم أو أقل من ذلك.

قال السيوطي: «والعالم عند العوام من صعد المنبر»[1].

ثم إنَّ معرفة الخطيب أنَّ الناس سيعملون بما يقوله ويمليه عليهم، هذا مما يزيد خوفه من الله أن يتكلم في دينه علىٰ غير الوجه الصحيح أو دون بينة أو دليل واضح، فلابد من تحري الحق والبحث عنه ودعاء الله سبحانه أن

(١) «تحذير الخواص» (ص ٢٧٨).

يسدده فيما يقول، ويهديه إلىٰ الحقِّ والرشاد، والتوجه إلىٰ الله ﷻ بالدعاء أن يكون تابعًا بالحق لا متبوعًا في الضلالة.

قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[1].

وليعلم المسلم الصادق الناصح أنه علىٰ قدر ما يكون الظفرُ بالأجر إن هدىٰ اللهُ الناسَ علىٰ يديه، علىٰ قدر ما يعظم خوفه من إزاغة الناس عن الحقِّ والهدىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (١٦٩١).

التوسط في الأسلوب

علىٰ الخطيب الموفق أن يكون طرحه لما يلقيه إلىٰ الناس بأسلوب وسط، لا يعسر فهمُه علىٰ قليل العلم ولا يزدريه صاحب الفهم، وهذا مما يحتاج إلىٰ توطين النفس علىٰ هذا الأسلوب وإدامة النظر في سنة النبيﷺ ومعرفة أحواله وطريقة تعليمه لمن يأتيه، ومراعاته لأحوال الناس علىٰ حسب فهمهم.

ولعل من أعظم ما يبين ذلك: قولهﷺ للرجل الذي قال: أقرأ فاتحة الكتاب، وأسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، ولا أُحسِن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقالﷺ: «**حولها ندندن**»[1].

وخطبة الجمعة المقصودُ منها: تعليم الناس العلم الذي يعبدون به ربهم وخالقهم سبحانه، ومن أجل ذلك فلابدَّ من توصيل هذا العلم بأيسر طريق وأقصر سبيل.

ولا يعمد الخطيب إلىٰ الأسلوب الصعب الذي يشق علىٰ الناس، فيجعل خطبة الجمعة ثقيلة عليهم وكأنه في ساحة عرض للمعلومات واستعراض للقوىٰ وليبين لهم أنه أديبٌ متكلمٌ، يحوي في جعبته ما لا يحصىٰ

(١) رواه أبو داود (٧٩٢)، وصححه الألباني في «صفة صلاة النبيﷺ» (ص١٨٦).

من المعلومات الأدبية، فليس هذا هو المقصود من خطبة الجمعة، ولكن المقصود دلالة الناس علىٰ الله ﷻ وتحبيبهم بشرع الله ﷻ، وبيان نعمته عليهم من تيسير الدين وتوضيحه ليعملوا بذلك.

وقد كان من هديه ﷺ أنه يعيد الكلام ثلاثًا ليفهم عنه، كما روىٰ عنه أنس بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه»[1]، وما ذاك إلا لحرصه ﷺ علىٰ هداية الناس والأخذ بأيديهم إلىٰ معرفة الحق والعمل به.

علىٰ أنني أقول لإخواني: إن مسألة كون الإنسان متكلمًا بليغًا هذه منة خالصة من الله تعالىٰ، ألا ترىٰ بعض العوام والأميين وقد فتح الله له من حلاوة الأسلوب والبيان ما لا يحسنه كثيرٌ من المتعلمين، فهذا محض امتنان من الله سبحانه ونعمة تحتاج إلىٰ أن تُشكر ممن وفقه الله إليها، فما اختار البليغ أن يكون بليغًا، وما أحب العييُّ أن يكون عييًّا.

فالله سبحانه هو المانع المعطي، والسعيد من جعل الله تعالىٰ بيانَه وطلاقةَ لسانه في طاعته وتبليغِ أمره ونهيه علىٰ الوجه الذي يرضيه عنه سبحانه، علىٰ أن المرء إن أحسن النية وصَدَق مع الله، ثم أكثر التأمل في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتدبَّر ذلك حقَّ التدبر، فإنه حريٌّ أن يفتح الله عليه من حلاوة الأسلوب وحسن البيان.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٤٠)، وحسنه الألباني في «مختصر الشمائل» (ص١٩٢).

اللغة البسيطة

مما لابد أن يعمل به الخطيب حين مخاطبة الناس: استعمال اللغة السهلة الميسرة التي يميزها أوساط الناس، فلا يعمد إلىٰ اختيار الكلمات الغريبة التي يحتاج متلقيها إلىٰ أن يكون بصحبته قاموس لمعاني الكلمات، أو أن يذهب الخطيب إلىٰ القواميس فيأتي بنوادر الكلمات التي تلجئ الأديب إلىٰ الرجوع للمراجع حتىٰ يعرف معناها فضلًا عن المتلقي العادي.

وتأمل الفرق بين قول القائل: (دجن الرجل وكميعته البلد) وقوله: (استوطن الرجل وزوجته البلد)، فالمعنىٰ واحد، ولكن الثاني واضح مفهومٌ، والأول بعيدُ الفهم عسرُ الهضمِ، فما الحاجة لمثل ذلك ؟!

علىٰ أنني أؤيد وبشدة أن تكون خطبة الجمعة باللغة العربية الفصحىٰ؛ لأنها هي محل التقاء الفهم بين المسلمين، واستعمال العامية في بلد من البلدان يجعل الخطبة محصورة في إطار معين وشريحة محدودة.

فإذا أراد الخطيب أن تنجح خطبته فلابد أن تكون بلسان عربي مبين، عربي: فصيح، ومبين: واضح للجميع لا لبس فيه ولا إيهام، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩].

هذا وإن من الواجب علىٰ الخطيب: اجتناب الألفاظ الغريبة أو غير الجائزة، ظنًّا منه أن هذا من باب التعمق في الأدب والبلاغة، فيعمد إلىٰ ألفاظ نشازٍ محظورة فيتلفظ بها، كقول بعضهم: «كاميرات سماوية»، أو قول البعض: «عرضت شاشة القرآن الكريم»، فإن مثل هذه الألفاظ دليل التكلف والتنطع، ولكن الشيطان لبَّس علىٰ قائلها أن ذلك من باب الألفاظ الأدبية الرنانة التي لا تُنسىٰ.

ولا زال الشيطان بأُناس يستدرجهم بدعوىٰ أنهم أدباء، حتىٰ جاءوا بالعجائب، ونسوا أنهم دعاةٌ سيقتدي بهم المتلقي في الخير أو الشر، فرووا القصص الخيالية، وأنشدوا الأشعار المحظورة، وتلفظوا بالألفاظ الغريبة، كل ذلك حتىٰ يقول الناس أنهم أدباء بلغاء.

علىٰ أنني أنبه أن بعض إخواننا ممن يعمد إلىٰ ذلك لا يريد مدح الناس لذاته، ولكن حتىٰ يبين للناس أن المتدينين بلغاء أدباء، وهذه الشبهة هي التي فتحت عليهم أبواب الشر فراحوا يتلقفون القصص والأشعار والوقائع والأحداث فيُعجبون بها فيروونها دون عرضها علىٰ الكتاب والسنة حتىٰ يميزوا ما فيها من مواطن الخطأ والزلل، فوقعوا فيما لا يُحمد.

فالمقصود هو الفهم، وقد أصبح من المسلمات في هذا العصر أن معرفة الناس باللغة العربية باتت ضعيفة إلىٰ حدٍّ كبير، ولدرجةِ أنه يَصعُب علىٰ كثير من الناس معرفة اللغة السهلة الميسَّرة، فكيف بالغرائب والأعاجيب؟!

وذلك الخطيب، ألا يريد أن يدل الناس علىٰ الخير ليعملوا بما يلقيه إليهم من النصائح والتوجيهات فيظفر بأجرهم؟! إذن فكيف يريد أن يَبلُغ هذه الدرجة، وهو يعسِّر عليهم بألفاظه حتىٰ يخرجوا من الخطبة ولم يفهموا منها إلا القليل.

❊ ❊ ❊

تحضير الخطبة

إن تحضير الخطيب لخطبته التي سيلقيها في مجامع الناس لأعظم دليل علىٰ احترامه لعقول الحضور ومراعاة مستواهم الفكري، ولذا فينبغي للخطيب أن يجتهد في التحضير لخطبته حتىٰ تكون متناسقة المعاني متماسكة الأطراف، وذلك أن الخطبة التي لا يحضِّر لها صاحبها تكون ركيكة مهلهلة يحكم مَن سمعها لأول وهلة علىٰ صاحبها أنه لم يحضِّر لها، وذلك يؤدي بالمتلقِّي أن يزدريَ الخطبة ويحكمَ علىٰ الخطيب أنه لا يحترم عقول من حضر عنده، وهذا نوع من الازدراء بهم.

فلابد للخطيب الحريص علىٰ الخير أن يترك كلمة أشباه العوام «قم ويفتحُ اللهُ عليك» التي يعتمدها بعض الخطباء، فتراهم يجمعون عشرين موضوعًا في خطبة واحدة، تعجز عن تركيب بعض أطرافها علىٰ البعض الآخر.

هذا وإنَّ قيامَ الخطيب علىٰ المنبر دون تحضير الموضوع -ولكن بمجرد وضعه في الذهن- نوعٌ من الغرور والاعتماد علىٰ النفس الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ عدم التوفيق، كما أنه يؤدي بصاحبه إلىٰ غاية خطيرة وهي أنه ربما يفتي ببعض المسائل الشرعية اعتمادًا علىٰ معلوماته القديمة المخزنة في ذاكرته، فإذا به ولطول العهد تكلم بها بخلاف الحق.

إن الخطيب المميز عن غيره هو الذي يعد خطبته ويحضِّر لها تحضيرًا

علميًّا دقيقًا، وهو بذلك قد ظفر بجملةٍ من الفوائد الغالية، فإنَّ في ذلك تنمية للملكة العلمية، وإثراءً لمعرفة المسائل الشرعية، كما أنه يعكس احترام الخطيب لمن يحضر عنده بإعطائه مادة يستفيد منها في حياته العلمية أو العملية.

وليبتعد بعضُ إخواننا الخطباء عن الظن الخاطئ المتمثلِ باعتقادهم أنَّ الناس لا تميز بين الخطبة المعدِّ لها أو الأخرىٰ، فالناس منهم الكبير والصغير، المتعلم وقليل العلم، صاحب الشهادة العالية والوسطىٰ والمتدنية، وكلٌّ مِن هؤلاء يحتاج إلىٰ معرفة التوصل إلىٰ عقله من خلال ما يلقيه عليهم، وكثير من هؤلاء لاسيما صاحب المكانة العلمية يرىٰ أن القيام أمامه بكلام متفرق مشتت هو نوع من عدم الاحترام أو الاحتقار له، أو علىٰ الأقل يتهمُ صاحبه بالغرور والتعالي، والأصعب من ذلك أن يحكمَ علىٰ الخطيب أنه لا يملك من المعلومات أكثر مما عنده.

وهذا من الأسباب التي تؤدي إلىٰ ازدراء الخطبة وعدم التشوق لاستماعها، والحكم عليها بأنها لا تختلف عن أي موضوع يطرح في مجلس من المجالس العامة، وإنما يحضرها من باب أداء الواجب الشرعي فقط.

ومن تأمل هذه السلبيات وغيرها مما ينتج عن عدم التحضير للخطبة، علِم عِظَم الجناية علىٰ هذا المنبر الذي شرَّف الله به الخطباء، ولكنهم لم يعطوه حقَّه متناسين أو متغافلين عما يسَّر الله لهم من أبواب الخير المتمثلة

في هداية الناس علىٰ أيديهم إن صدقوا في أداء الأمانة علىٰ الوجه المطلوب.

وليحذر الخطيب المسدد من النظر إلىٰ خطبة الجمعة وكأنها تحصيل حاصل أو ثقلٌ يريد أن يلقيه عن كاهله، فيدعوه ذلك إلىٰ التململ والضجر، بل الواجب عليه أن يحمد الله علىٰ هذه النعمة العظيمة التي أسبغها عليه منَّةً منه وتفضلًا حتىٰ صار خطيبًا علىٰ المنبر يحضر له الناس ويستمعون قولَه، وقد كان غيره أولىٰ بذلك منه، ففتح الله عليه مِن النعمة ما مَنَع منه آخرين هم أحقُّ منه وأعلم، فكان من تمام شكر نعمة الله عليه أن يعطي هذا المنبر حقه، وأن يعدَّ خطبته وهو فرحٌ مسرور مغتبط أن جعله الله معلِّمًا للناس دون حول له أو قوة.

وليحذر أشد الحذر من النظر إلىٰ الخطبة وكأنها وظيفة يجب أن تؤدىٰ، فيؤديها علىٰ أي صورة فهذا نوع من العبث، فخطبة الجمعة باب لدعوة الناس إلىٰ الخير، فلا ينبغي أن يحوِّلها بعضُ الخطباء إلىٰ أداةٍ للتنفير، وإن أعظَم ما ينفر عنها هو ازدراء الخطيب لخطبته بعدم التحضير لها ورفعها إلىٰ مكانتها التي تنبغي لها.

فأعيذك -أخي الخطيب- بالله أن تكون ممن صرفَ اهتمام الناس بخطبة الجمعة بسبب عبثه فلا يعطيها إلا ما فضل من وقته، حتىٰ إذا ضاق الوقت الفاضل عن أعماله قام معتمدًا علىٰ معلوماته وحوله وقوته فوكله الله إلىٰ جهده ففتح عليه أبواب الخذلان وأغلق دونه أبواب التوفيق.

هذا وإن علامة التوفيق للخطيب: أن ينظر لمن يصلي عنده من باب التوقير والإجلال، حيث تخطَّوا غيره إليه مع كثرة الخطباء وتقارب المساجد، وليشكر لهم صنيعهم بأن يقدم لهم أجود ما يستطيعه، ويجتهد في ذلك أشد الاجتهاد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: « أنفع الناس لك رجلٌ مكَّنك من نفسه حتىٰ تزرع فيه خيرًا أو تصنعَ إليه معروفًا، فإنه نعم العون لك علىٰ منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر، وأضر الناس عليك من مكَّن نفسَه منك حتىٰ تعصيَ الله فيه، فإنه عونٌ لك علىٰ مضرَّتِك ونقصك »[1].

❊ ❊ ❊

(١) «الفوائد» (ص ٢٤٨).

مراعاة الوحدة الموضوعية للخطبة

لكي تكون الخطبة ناجحة فلابدَّ أن يراعي الخطيب الوحدة الموضوعية لخطبته، وأن يكون ثمَّة تناسق بين عناصر الخطبة، فنعجب من بعض الخطباء حين يقوم علىٰ المنبر فيبدأ بموضوع معين ثم تعرض له كلمة فينطلق من خلالها إلىٰ موضوع آخرَ بعيد عن موضوع خطبته، مما يؤدي بالمستمع إلىٰ التشويش والملل وتشتت الأفكار.

فالواجب علىٰ الخطيب: كتابة عناصر خطبته أو ضبطها علىٰ الأقل، فيعرف ما يبدأ به وما يحتاج إلىٰ بسط، وكيف ستكون خاتمة الخطبة، وعليه أن يقيِّد نفسه بألا يخرج عن الموضوع الأصلي الذي يريد التحدث عنه، فإنه إن فعل ذلك أخلَّ بموضوع الأصل ولن يستطيع الإحاطة بما عرج عليه.

وإن من أفضل ما يعين الخطيب علىٰ ضبط النفس ونجاح خطبته: أن يتجرد من الشعور الكامن في النفس -بدافع الحرص- المتمثل بإرادته أن يبلغ الناس كل ما استطاعه في خطبته، فإن هذا الشعور سيشتت موضوعه ويقتله.

فمن المحزن حقًّا أن تحضر عند بعض الخطباء، فيداهمك الشعور وكأنَّه لن يخطب غير هذه الخطبة، فتجده يتكلم في كلِّ شيء، فيتناول موضوعًا في أقصىٰ الشرق ثم بسرعة فائقة ينقلك إلىٰ أقصىٰ الغرب، فتجد خطبته

مزيجًا من الأحكام الشرعية ثم ينتقل إلىٰ السياسة ثم يأخذك إلىٰ الاقتصاد، دون ترابط في الأفكار.

فإذا خرجت وسألت نفسك ما الجديد الذي استفدته؟! فإذا بالجواب: لا شيء.

فمن أفضل ما يعين الخطيب علىٰ ضبط عناصر خطبته: أن يعلمَ أنَّ من أكبر عوامل النجاح أن يتناول كلَّ موضوع علىٰ حدة، وأن يذكِّرَ نفسَه أنَّ الخطب المقبلة كثيرة، فما أدركه منها أخلص في أن تكون مميزة، وما لم يدركه منها نوىٰ فيه الخير، فهو بنيَّته.

❊ ❊ ❊

تنويع الخطب

إن من علامات نجاح الخطيب في رسالته: أن ينتهج مبدأ التنويع في خطبه، فإن هذا المنبر وسيلة تعليمية لكشف الالتباس وإثراء المعلومات، فيحسن بالخطيب أن ينوِّع فيما يطرحه، فمرة بالتوحيد، ومرة بأبواب الفقه، ومرة بمسائل الأخلاق، وأخرىٰ في تصحيح السلوك، ولا يحدِّث نفسَه أنَّ الناس يعرفون هذا الشيء أو ملوا سماعَه، فيُعرض عنه بسبب ذلك الظن.

ولابدَّ حتىٰ تكون رسالته ناجحة أن يضع في مخيلته أنَّ موضوع خطبته لم يسمعه الحضور قبل اليوم، وهو بذلك لن يعدم الحصول علىٰ أحد أمرين:

الأول: أنه سيُحدث طريقة طرحٍ مختلفة عما درج عليه غيره، وسيجتهد أن تكون مقنعة.

والثاني: أنه سيثري معلوماته بالبحث والدراسة، والتي سيثري بها بالتالي معلومات من حضر عنده.

ثم إنه ليس صحيحًا أن نضعَ قاعدةً في أنَّ هذا الموضوع أو ذاك قد قُتِل طرحًا، فهو قد يكون بُحِثَ كثيرًا من غيره، أما في مسجده فلم يطرح قبل اليوم، أو ربما يكون قد طرح ولكنَّ الناس وخاصة العامة يحتاجون إلىٰ تكرار المعلومات حتىٰ يعملوا بها، وذلك بسبب قلة اتصالهم بالعلم الشرعي،

فإذا وُجِد من طلابِ العلم مَن قد ينسىٰ المعلومات لطول الأمد بينه وبينها، فكيف بعوام المسلمين؟

وتنوع الخطب دليل علىٰ فقه الخطيب وحرصه علىٰ أن يصحح الناسُ عباداتهم التي تُرضي الله عنهم.

وإنني لأعجبُ أشدَّ العجب من بعض الخطباء -غفر الله له- الذي يكرر دائمًا أنه لا يعرف بماذا يخطب اليوم، أو أنه قد أدركه يوم الجمعة ولم يجد موضوعًا يخطب فيه، فإذا ضاق عليه الوقت عمدَ إلىٰ خطبةٍ لغيره فقرأها علىٰ الناس قراءةً باهتة لا روح فيها ولا شعور.

فجميل بالخطيب أن يضع له خطةً يسير عليها في تنويع خطبه حتىٰ تكون رسالة وافية مفيدة، فيخطب بالتوحيد والفقه والحديث والسيرة وأشراط الساعة والأخلاق والسلوك والآداب.

فمن نظر إلىٰ هذه الأبواب علم أنه يندرج تحتها آلاف الجزئيات، ولكن الحقيقة المؤلمة التي لابد أن نعترف بها وأن نواجه بها إخواننا أن كثيرًا مِن الخطباء -مع الأسف الشديد- لا يفرِّغ نفسه لإعداد خطبته، بل إنه يجعل لتجهيز هذه الخطبة ما فضل من وقته، ولذلك تجد خطبته ركيكة هزيلة.

ولعل ما أدىٰ إلىٰ هذه الحال كون كثير من الخطباء ليسوا بطلاب علمٍ، ولذا تجدُ خطبَهم متكررة، أو تدور في فلكٍ واحد، أو يعتمدون علىٰ خطب

غيرهم، وإن كان الواقع كما ذكر، فهل يعسر علىٰ أحدهم أن يقوم بتلخيص موضوعٍ معين كتبه عالم أو كاتب ثقة فينقله بدوره إلىٰ الناس بطريقته وأسلوبه؟

قد يمتنع بعض الخطباء عن هذه الطريقة خوفًا من أن تأتيه بعد الصلاة أسئلة متعلقة بما طرحه علىٰ المنبر، فيشعر بالحرج إن لم يكن محيطًا بالمسألة، ولكن هذا من تخويف الشيطان وتلبيسه، فلا ينبغي أن يثني الخطيب عن رسالته بتبليغ ما استطاعه من دين الله، وليكن له أسوة حسنة في أئمة السلف -رحمهم الله- الذي لم يجد أحدهم علىٰ نفسه غضاضةً أن يقول لما لا يعلمه: الله أعلم، أو: لا أعلم.

فعن عبد الله بن عون رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء، فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني رُفعت إليك ولا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلىٰ طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخٌ من قريش جالسٌ إلىٰ جنبه: يا ابن أخي الزمها فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: واللهِ لأن يقطع لساني أحب إليَّ من أن أتكلم بما لا علم لي به»[1].

وقال عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال له: يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة ستة أشهر، حملني أهل بلدي

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر(٢/ ٥٣).

مسألة أسألك عنها، قال: فسل، فسأله الرجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها.

قال: فبُهِت الرجل كأنه قد جاء إلىٰ من يعلم كل شيء، فقال: أيُّ شيءٍ أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟. قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن»[1].

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: «ينبغي للعالم أن يألف فيما أشكل عليه قول: لا أدري، فإنه عسىٰ أن يهيأ له خير. وكنت أسمعه كثيرًا ما يقول: لا أدري»[2].

وعن عقبة بن مسلم قال: «صحبت ابن عمر رضي الله عنهما أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يُسأل فيقول: لا أدري، ثم يلتفت إليَّ فيقول: أتدري ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسرًا إلىٰ جهنم»[3].

وليعلم الخطيب الموفَّق أن الناس بحاجةٍ إلىٰ معرفة كلِّ ما يهمهم من أمر دينهم في جميع الأبواب، فلا تبخل علىٰ إخوانك أن تبذل لهم ما يحتاجون إليه من النفع والتعليم، لاسيما ما تدعو الحاجة إليه من أبواب العلم.

وقد كان النبي ﷺ يُسأل السؤال فيجيب السائل علىٰ حسب ما يحتاجه، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة علىٰ ميقاتها**». قيل:

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٥٣).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٥٤).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٥٤).

ثم أي؟ قال: «**برُّ الوالدين**». قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

وسئل ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله ورسوله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[2].

وقد قال العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال، أنَّ الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره[3].

ولعل في هذا إشارة إلىٰ تنويع الخطبة علىٰ حسب ما يحتاجه الناس لتصحيح عباداتهم، لاسيما في هذه الأزمان التي كثر فيها الجهل وابتعاد الناس عن الهدي الرباني، فليكن لك دورٌ كبير في تصحيح السبيل المؤدي إلىٰ رضوان الله فإن في ذلك أعظم الأجر.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٢٥).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٠٠).

تجنب ردود الأفعال

ينبغي علىٰ الخطيب أن يمتاز بالروية والأناة، والتروي في أفعاله وتصرفاته، وألا تكون تصرفاته مبنية علىٰ ردود الأفعال، لأن ردود الأفعال تقود إلىٰ التصرفات غير المنضبطة.

ولا نعني بتجنب ردود الأفعال ألا يتحرك قلبه لقضايا المسلمين وما يحدث في المجتمعات الإسلامية من الانتهاك لحرمة التوحيد والعقيدة الإسلامية، ولكن نعني أن يتأثر الخطيب بكل ما يحدث من الأفعال فيقوده ذلك إلىٰ التهويل والمبالغة في التحليلات المخالفة للصواب.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠].

فقد رأينا من فسَّر بعض الأحداث الواقعة في الأمة علىٰ أنها إحدىٰ علامات الساعة، ثم مضىٰ الحدث ولم يحصل الأمر علىٰ نحو ما توقع.

وقد تودي ردود الفعل بصاحبها أن يحمِّل الأمور أكثر مما تحتمل أو ينسب الأفعال إلىٰ غير أصحابها، فلابد للخطيب أن يتصف بالانضباط التام، وأن يكون كلامه مبنيًّا علىٰ القواعد الشرعية، بعيدًا عن التأثر بما حوله.

وقد يكون الانفعال الحاصل لبعض الخطباء بسبب ما يسمعونه من الأحداث التي يتناقلها بعض الناس، ويطرحونها بأساليب مؤثرة فيؤثر ذلك

علىٰ طرحه مما يجعله يخرج عن المألوف في خطبته، ولعل من أفضل ما يعالج به المرء نفسه ويمرنها علىٰ التحكم بطبيعتها، أن يؤجل الحديث عن بعض الوقائع حتىٰ تنكشف له وتتضح، وأن يُعرِض عن الموضوعات التي تقوم علىٰ الرأي والتحليل وتحتمل وجهات النظر.

❊ ❊ ❊

تنزيه المنبر عن الخوض فيما لا يليق

المنبر أداة تعليم وتوجيه، ووظيفة الخطيب الأصلية هي توجيه الناس وتعليمهم السبيل الذي يقودهم إلىٰ رضوان الله تعالىٰ والعمل بطاعته في شتىٰ أعمال الحياة، ولذا لابدَّ أن يُنَزَّه المنبر عن الخوض في بعض الأنواع من الأحاديث التي لا تليق برسالته.

ومن جملة هذه الموضوعات: الأحاديث السياسية، فلا ينبغي أن يُوظَّف المنبر لذلك، وأن يكون نَفَس الخطيب سياسيًّا، وأن يحاول إغراق الناس بالأحاديث السياسية، ولا نعني بذلك تجنب الحديث في السياسة الشرعية، ولكن المقصود أن يُطلَب منهم أن يتقمصوا شخصية الساسة، وأن يفعل هو نفس الفعل، فحسنٌ بالمرء أن يعرف صلاحياته وحدودَه والعملَ المنوط به ومنتهىٰ قدراته.

فنعجب من بعض الخطباء حين يخوض في أحاديث السياسة فيبدأ التحليل حتىٰ وكأنه حاكم أو سلطان يخطب علىٰ رعيته.

جميل أن يؤمن المرء بمسألة توزيع الاختصاصات، فلا يقتحم المرء ولا يقحم نفسه فيما ليس من اختصاصه، لأن من تكلم فيما ليس من تخصصه جاء بالعجائب.

وأعود وأقول: إن الذي نعنيه هو إقحام الناس في السياسة حتىٰ يروا أنَّ مَن أحسنها قد نال الرتبة العالية في العلم، إلىٰ أن تئول الدعوة إلىٰ دعوة سياسية تتصرف وتتعامل وفق ألاعيب السياسة وإن كانت وسائل مذمومة أو محرمة شرعًا.

علىٰ أننا لا نعني بذلك أن يُسكت عن إنكار المنكرات حتىٰ تفشوَ في المجتمعات فتصير من المسلَّمات التي يصعب مواجهتها أو تغييرها علىٰ مدىٰ الأزمان، مع ضرورة بيان أنَّ المنكر لابدَّ أن يُنكَر وفق الضوابط الشرعية، وعلىٰ اختلاف حالات الإنكار بالنسبة لاختلاف الوقائع والأشخاص.

فلابد للخطيب أن ينزه المنبر من أن يصبغ بالصبغة السياسية حتىٰ تكون سمة بارزة له من كثرة ما يُطرح عليه من أحاديث السياسة.

أليس من الخسران أن ترىٰ بعض الخطباء وقد حول المنبر كقناة لبث الأخبار، ويزيد علىٰ ذلك أن يحاول إلزام الحضور بما توصل إليه من التحليلات السياسية!

ولو أنه التزم بالعلم الشرعي الذي هو في دائرة اختصاصه لأخذ الناس بما يقول ورأوا أنه تكلم بالعلم الشرعي الذي هو من أصحابه، أمَا وإنه قد اقتحم أحاديث السياسة فليس من اللازم أن يأخذَ الناس بما قاله، فالمسألة لا تعدو كونها تحليلًا سياسيًّا تختلف فيه الأنظار، ولربما كان كثيرٌ من المستمعين أكثر فقهًا فيه من الخطيب.

وعلىٰ ضوء ذلك نقول لمن أراد أن يخوض في السياسة علىٰ المنبر لدرجة الإغراق، ولا يريد أن يعمل بالنصيحة ببذل العلم الشرعي وتجنب أحاديث السياسة، فنقول له: لا يأخذك العُجب وأنت تحلل بعض المواضيع السياسية لدرجة أنك ترىٰ أنَّ من حضر عندك لا يفقه شيئًا، وأنك أعلم منهم بأحاديث السياسة، فإن كثيرًا ممن يحضر عندك هو أكثر اطلاعًا منك فلا تغتر.

إن السعادة الحقيقية أن يأخذ الله بيد الخطيب لبذل العلم الشرعي، لأن ذلك فيه نجاة نفسه وإنقاذ الناس من غياهب ظلمات الجهل، وأما مسائل السياسة فإنه لا يضر الجهل بها، ولا تزيد معرفتها من رصيد عالمها، بل إنها غالبًا ما تبعث في نفوس أصحابها اليأسَ من رَوح الله والقنوط من رحمته وتعليق النتائج علىٰ الأسباب المادية، حتىٰ يؤدي ذلك إلىٰ سوء الظن بالله بسبب الاعتماد علىٰ الأخبار السياسية في الوقائع والأحداث، وعدم تعليقها علىٰ الأسباب الشرعية، وكفىٰ بهذه النتيجة خذلانًا وحرمانًا.

فالواجب علىٰ الخطيب الناصح الذي يعرف أنَّ هذه الخطبة دينٌ ورسالةٌ نبيلةٌ: أن يسعىٰ إلىٰ ربط الناس بالأدلة الشرعية التي تعين المسلم علىٰ التمسك بعقيدته، وتقوي ثقته بربه ﷻ، والموفق من وفقه الله وأخذ بيده لأعمال البر والاقتداء بهدي النبي ﷺ.

كما ينبغي للخطيب أن ينزه المنبر الشريف عن ذكر ما لا يليق من القصص والأحداث، كذكر أسماء المطربين والمطربات والممثلين والممثلات،

وذكر أقوالهم وأفعالهم، فإن المسجد أعلىٰ قدرًا من أن يُذكرَ فيه أمثال هؤلاء الساقطين والساقطات، نسأل الله أن يعافينا وإخواننا من حالهم.

مع أنه لا مانع أن يذكر قولًا قد تلفظ به أحدهم علىٰ وجه التحذير من قالة السوء التي يدعو إليها، خصوصًا إذا كانت تتعلق بتحليل أو تحريم، لاسيما في مثل هذه الأوقات التي تحول كثير من هؤلاء الساقطين إلىٰ مفتين.

ولكن لا يستحسن أن تذكر أسماؤهم علىٰ المنبر من باب توقير المسجد؛ وحتىٰ لا يُعطَوا أكبر من قدرهم وأعظم من حجمهم، لأن الصغير يبقىٰ صغيرًا، ولا يُرفع اسمه علىٰ أشرف مكان وأعلاه.

* * *

الاستماع لملاحظات المصلين والاستفادة منها

ينبغي أن يُعلَم: أن استماع الخطيب لملاحظات المصلين، مما يساعده علىٰ النجاح في أداء رسالته، وعلىٰ ذلك فلابد لخطيب الجمعة أن يتواضع للناس غاية التواضع، وألا يتكبر عن سماع ملاحظاتهم وآرائهم والأخذ بمشورتهم.

ومن أجل أن يبلغه ذلك فلابدَّ أن يجرِّئَ المصلين عليه بعض الشيء حتىٰ يُدلوا برأيهم له، وأن يبين لهم أنه لا يمانع بل ويسره أن يتلقىٰ ملاحظاتهم ومشورتهم.

مع التنبيه علىٰ أن يبلِّغوه بما يرونه فيما بينهم وبينه لا علىٰ الملأ، حتىٰ لا يؤدي ذلك بزعزعة شخصيته أمام الحضور، فإن من أساسيات نجاح الخطيب تمتعه بالشخصية القوية المتزنة.

كما ينبغي للخطيب أن يكسر الحاجز الذي يحول بينه وبين من يحضر له، فإن بعضَ الناس قد تكون عنده ملاحظة أو مشورة بموضوع يحتاجه الناس، فلا يمنعه من الإدلاء بها إلا الحياء أو التحفظ مِن شخصية مَن أمامه، فلا مانع من أن يكسر ذلك الحاجز.

وقد جاء في حديث عائشة ﵂ قالت: إنَّ أبا بكر استأذن علىٰ رسول الله ﷺ وهو مضطجع علىٰ فراشه فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضىٰ إليه حاجته

ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو علىٰ تلك الحال فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عليه عثمان، فجلس وقال لعائشة: «**اجمعي عليك ثيابك**»، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنتُ له علىٰ تلك الحال ألا يبلغ إليَّ في حاجته**»[1].

وقد يفتح الله علىٰ المرء بخطبة نافعة بسبب مشورة أو اقتراح من أحدِ المصلين وإن كان عاميًّا، كما أنه لربما يتنبه إلىٰ علم ما لم يعلم بسبب سؤال من أحد الحضور، يلجئه إلىٰ البحث الذي يؤدي بالتالي إلىٰ زيادة رصيده العلمي.

قال الخليل بن أحمد: «إن لم تعلم الناس ثوابًا، فعلمهم لتدرسَ بتعليمِك علمَك، ولا تجزع من تقريع السؤال فإنه ينبهك علىٰ علم ما لم تعلم»[2].

علىٰ أنني أنبه إخواننا أننا لا نعني بالتواضع مع المصلين أن يعمد الإمام والخطيب إلىٰ إذهاب هيبته وحيائه بالاستخفاف والمزاح الكثير الذي يجرِّئ عليه السفهاء، حتىٰ لا يبقىٰ له قيمة ولا قدر.

فمن المعلوم أن الناس لا يأخذون العلم والعمل إلا ممن يرونه قدوة،

---

(١) رواه مسلم (٤٤١٥).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٩٠).

وثمة فرق دقيق بين التواضع وقلة المهابة التي تؤدي بمن تلبس بها إلىٰ الذلة والمهانة، فالتواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومِن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها.

فيتولد من بين ذلك كلِّه خُلقٌ هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرىٰ له علىٰ أحدٍ فضلًا، ولا يرىٰ له عند أحدٍ حقًّا، بل يرىٰ الفضلَ للناس عليه والحقوقَ لهم قبله، وهذا خُلُقٌ إنما يعطيه الله ﷻ مَن يُحِبُّه ويكرمُه ويقرِّبُه.

وأما المهانةُ فهي الدناءةُ والخسة وبذلُ النفس وابتذالُها في نيل حظوظِها وشهواتِها كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضعِ طالبِ كلِّ حظٍّ لمن يرجو نيلَ حظِّه منه، فهذا كلُّه ضعة لا تواضع، واللهُ سبحانه يحب التواضعَ، ويبغض الضعة والمهانة[1].

ومن أراد معرفة كيفية التعامل مع الناس فعليه بإدامة النظر في سنة النبيﷺ، فوالله إن هوَ فعلَ ذلك، فقرأها بتدبر كبير، وقد جعل في نيَّتِه أن يعمل بما علمه منها، فسيفتح الله له من الخير ما لم يكن في حسابه.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «الروح» لابن القيم (ص٢٢٣-٢٢٤).

العناية بصحة الدليل وصحة الاستدلال

يجب علىٰ خطيب الجمعة، بل وكل مَن تصدر للوعظ أو التدريس أن يهتم غاية الاهتمام بصحة ما يستدل به، فلا يستدل بحديث وينسبه إلىٰ النبي ﷺ وهو لم يتأكد من صحته، لأن الحديث النبوي دليلٌ من أدلة التشريع، فإذا ذكره للناس ترتب عليه أخذ الحكم منه.

ولذا فإنك تعجب أشد العجب من بعض الخطباء وهم يقيمون خطبة كاملة في شرح حديث ضعيف أو موضوع، أو أنهم ينسبون إلىٰ النبي ﷺ حديثًا مستدلين به علىٰ حكمٍ ما وهو ضعيف أو موضوع، وهذا أمر محرم.

قال ﷺ: «**من حدث عني بحديث يُرىٰ أنه كذب فهو أحد الكاذبين**»(١).

وقال: «**إن كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ علىٰ أحد، من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»(٢).

والآن بحمد الله قد توفرت الكتب التي تُعنىٰ بصحيحِ السنة وبيانِ صحيحِها وضعيفِها، ككتب الشيخ الألباني والشيخ ابن باز والشيخ مقبل بن هادي، وغيرهم كثير من العلماء وطلاب العلم الثقات الذين اهتموا بهذا

(١) رواه مسلم (١).

(٢) رواه البخاري (١٢٠٩)، ومسلم (٥).

العلم الشريف، فما عذرُ خطيبٍ يستدلُّ بحديث مكذوب علىٰ النبي ﷺ أو حديث ضعيف ويشرحه ويستنبط منه الأحكام مع توفر الكتب التي تبين له درجة ذلك الحديث، إلا إن كان الحامل علىٰ ذلك هو التقليد أو ضعف الهمم حتىٰ عن النظر في كلام أهل العلم.

فإذا علم الخطيب الموقَّر أنَّ الاستدلال بحديثٍ ما وهو لا يصح أو ضعيف يعني أخذ الأحكام منه، علم خطورة الاستدلال به من ناحية الوعيد المترتب علىٰ من استدل به، وأيضًا من ناحية عمل الناس بما سمعوه فينسبون للنبي ﷺ قولًا ما، ثم يعملون بمقتضاه.

فاللهَ اللهَ يا أحبتنا، فإن البركة والخير قرين السنة، وما انتفع الناس بشيء انتفاعهم بالعمل بسنة النبي ﷺ، فليحذر المتصدِّر للتعليم أن ينسب للنبي ﷺ ما لم يقله أو يفعله.

هذا وإنَّ الجهة الأخرىٰ للدليل هي صحة الاستدلال، فقد يكون الدليل صحيحًا، كمن يستدل بآية من كتاب الله أو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، ولكنه يخطئ من جهة الاستدلال بها، فيحملها علىٰ غير ما نزلت من أجل بيانه وعلاجه، فالخطأ في الاستدلال يؤدي إلىٰ أن يُنسَبَ للشريعة ما ليس منها.

ولذا فالواجب علىٰ طالب العلم أن يرجع إلىٰ شروح أهل العلم، إن كان الدليل من القرآن رجع إلىٰ كتب التفسير الموثوقة كتفسير ابن كثير أو

تفسير السعدي -إن أراد الاختصار-، وإن كان الدليل من السنة رجع إلىٰ شروح أهل العلم عليه، فيعرف المراد من الحديث حتىٰ لا يستدل به علىٰ غير وجهه.

ألا ترىٰ أن بعض الناس لما اعتمد علىٰ فهمه عمل بغير المراد من الحديث، فبعضهم فهم من قول عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[1]، أن المقصود بأيسرهما «اليسار»، فكان إذا مشىٰ في طريق أخذ جهة الشمال، والمقصود أصلًا: اليُسر الذي هو ضد العسر، وليس اليسار الذي يقصد به الجهة أو الناحية.

ومن فهم من قوله ﷺ: «**مضمضوا من اللبن؛ فإنَّ له دسمًا**»[2]، التمضمض باللبن، والمقصود أنه إذا شرب لبنًا تمضمض منه بالماء حتىٰ لا يبقىٰ الدسم.

فلا يُعتمد في تفسير الكتاب والسنة علىٰ الفهم المجرد، بل لابدَّ مِن الرجوع لشروحات أهل العلم وإن كان شرحًا مختصرًا يزيل الالتباس، ومع هذا التطور لا عذر لأحدٍ في هذا التقصير المخل، فأجهزة الحاسوب قد جمعت آلاف الكتب التي لا تكلف علىٰ صاحبها سوىٰ اختيار ما يراد فهمه ومعرفته.

---

(١) رواه البخاري(٣٢٩٦)، ومسلم (٤٢٩٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٩٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦١).

والحذرَ الحذرَ أن يستدل الخطيب الذي يخاف الله ويتقيه بالقَصَص والخيالات والمنامات ويبني عليها الأحكام الشرعية، وقد تكون تحمل في طياتها الشرك أو البدع أو الخرافات فيَنسِب ذلك إلىٰ الشريعة المطهرة، فإن ذلك جرمٌ عظيم وحملٌ للناس علىٰ التشبع بالبدع والخرافات، ألا تعجب من قيام بعض الوعاظ والمدرسين ممن يثق الناس بهم بالاستدلال ببعض القصص الموضوعة التي فيها زيغ عن العقيدة.

كاستدلال بعضهم بقصة بلال ﷺ في أنه رأىٰ في منامه النبيﷺ وهو يقول له ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزينًا وَجِلًا خائفًا، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتىٰ قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه وأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما فقالا له: يا بلال نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذنه لرسول اللهﷺ في السحر ففعل، فعلا سطح المسجد فوقف موقفه الذي كان يقف فيه فلما أن قال: الله أكبر، عجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، زاد عجيجها، فلما أن قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، خرج العواتق من خدورهن، فقالوا: أبُعِث رسول اللهﷺ ؟ فما رؤي أكثر باكيًا ولا باكية بعد رسول اللهﷺ من ذلك اليوم.

فهذه الرواية باطلة موضوعة ولوائح الوضع عليها ظاهرة من وجوه

عديدة[1]، كما أنه قد خفي علىٰ هذا المتكلم ما في هذا الخبر المكذوب من الدعوة إلىٰ شدِّ الرحال إلىٰ القبور التي نهىٰ عنها الصادق المصدوق ﷺ.

ومثل ذلك من يستدل بالقصة الموضوعة علىٰ إبراهيم عليه السلام أنه حين رموا به في المنجنيق إلىٰ النار استقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي[2]، فيستدل بهذه القصة مع ما فيها من نفَسٍ عقدي مخرف يتمثل في الدعوة إلىٰ ترك الأخذ بالأسباب.

ولو كلف ذلك المتحدث نفسه بالنظر لدقائق في كتاب «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» للشيخ الألباني رحمه الله لعلم كذب ما استدل به وخطورته علىٰ العقيدة[3].

إن بعض الوعاظ لا يريد أن يبحث في صحة بعض القصص، حتىٰ لا يعلم كذبها وذلك لما تحمله من ألفاظ ترقق قلوب المستمعين وتجري مدامعهم، ونسي أنَّ بعضها يؤدي بانحراف الناس عن العقيدة الصحيحة التي من أجلها خلقت الخليقة.

---

(١) «دفاع عن الحديث النبوي» للشيخ الألباني (ص٩٤)، وانظر: «الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي» لابن عبد الهادي (ص٣١٢ وما بعدها)، ت: إسماعيل الأنصاري.

(٢) «السلسلة الضعيفة» للألباني رقم (٢١)، وقال: «لا أصل له».

(٣) انظر: تعليق الشيخ الألباني علىٰ هذه القصة فإنه مهم، «السلسلة الضعيفة» (١/ ٩٨).

كما أنه من الواجب علىٰ الخطيب: أن يبتعد عن ذكر القصص الخيالية التي تنسب إلىٰ بعض المتقدمين وليس لها سند ولا ثبوت، فيؤدي ذلك بالناس إلىٰ ضعف ثقتهم بالمتحدث، والأدهىٰ أن ينسبوا الكذب إلىٰ الشريعة لسماعهم أحاديث لا يصدقها حتىٰ البلهاء والسفهاء فضلًا عن العقلاء.

وما الذي يدفع إلىٰ ذلك؟ إن كان المقصود ترقيق قلوب الناس واستمالتها إلىٰ الدِّين، فلا شيء يقربها ويرققها مثل القرآن والسنة وسيرة الصحابة والتابعين وأئمة الهدىٰ، دون مبالغات أو إثارة مفتعلة، فالسنة غنية في ذلك، والسيرة مليئة بالأحداث التي ترقق القلوب، وسيرة الصحابة ومعارك أهل الإسلام مليئة بالأحداث والعبر والعظات.

فلابد من التحري والبحث والتدقيق في أن يكون ما يستدل به الخطيب من السنة صحيحًا، لأنه سينسب القول إلىٰ النبي ﷺ، كما أنه لابدَّ من صحة الاستدلال فيما صح عنده لأنه سينسب الأحكام للشريعة، وإذا علم أن الناس سيعملون بما يدلي به زاده ذلك خوفًا وورعًا أن يعمل الناس بما قاله دون بينة واضحةً.

وقد يسمع خطبته رجلٌ مسافر أو رجلٌ غريبٌ فيأخذ كلامه، ثم يتبيَّن له أن ما أدلىٰ به خطأ فأين يجد من ذهب حتىٰ يصحح له ما وقع منه من الخطأ.

وهنا يعرف المتصدِّر للتعليم خطورة وضعه، فعلىٰ قدر ما يحصل له

من حلاوة الأجر إن أحسن النية وأخلصها لله رب العالمين، علىٰ قدر ما يعظم خوفه أن ينسب إلىٰ الشريعة ما ليس منها دون علم منه، فيعمل الناس بقوله فيبوء بالإثم.

أما إن اجتهد في استدلاله بما صح مع صحة الاستدلال فهو مأجور، ويُرجىٰ له أن يكون داخلًا في قوله ﷺ: «**نضَّر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه؛ فرب مبلَّغ أوعىٰ من سامع**»[1].

فليجتهد الخطيب الموفق بمعرفة هذا الأصل العظيم والعمل به والدعوة إليه، فلا خير في دعوة لا تقوم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليثق أنَّ أي دعوة لا تقوم علىٰ العناية بهذين الأصلين إنما هي كالزبد، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

ومن رأىٰ واقع الحال، رأىٰ أن كلَّ وعظٍ وتوجيه لا يقوم علىٰ الاستدلال بهذين الأصلين العظيمين، فإنه منسي لا يؤتي ثماره علىٰ المدىٰ البعيد.

وخُذ عندك مثلًا لو أن رجلًا وعظ الناس بالكِبر، وأخبرهم بتحذير النبي ﷺ منه، وآخر لم يذكر حديثًا وإنما ذكر قصةً لأحد المتكبرين وكيف أنَّ الله أهلكه، فما الذي يثبت منهما في قلب المتلقي علىٰ المدىٰ البعيد؟ لا شك أنه الأول، لأنه كلما أراد أن يحمله شيءٌ علىٰ الكِبر تذكر الحديث

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢١).

فتراجع، وأما الآخر فإنها قصة من القصص ربما يكون له مثل نتيجة ذلك المتكبر وربما لا.

فاللهَ اللهَ بالاعتناء بما صح من الآثار والسنن، فإن في ذلك البركة في الآخرة والأولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

ولن تستقيم دعوىٰ المحبة للنبي ﷺ إلا بطاعته وامتثال أمره، ولن يكون الامتثالُ حقيقيًّا إلا بمعرفة الأمر علىٰ وجهه المطلوب وما أريد به والعمل به ودعوة الناس إليه، ولن يكمل له ذلك إلا بمعرفة صحة الدليل الذي يستدل به، وأن يستدل به علىٰ الوجه الذي شرع من أجله.

❊ ❊ ❊

تنمية المعلومات وتنوعها

من وسائل نجاح الخطيب في رسالته: تنويعه في الموضوعات المطروحة وهذا لابدَّ له من تنمية المعلومات وتنوعها، ولأجل أن يحصل علىٰ ذلك؛ فلابدَّ له أن يكثر القراءة في المواضيع العلمية المختلفة، ولعل من أفضل السبل للتوصل إلىٰ هذه الغاية الجميلة أن يعمد الخطيب إلىٰ تلخيص الكتب والرسائل وإلقائها علىٰ الناس بأسلوب خطابي.

فمثلًا لو أراد أن يتكلم عن الآداب فإنه يحسن به أن يختار كتابًا يهتم بهذا الباب، ثم يسعىٰ إلىٰ تلخيصه وتنقيته من الشوائب كالأحاديث الموضوعة والضعيفة، ويضيف إليه ما نقص من الآيات والأحاديث الصحيحة والآثار، ثم يعيد صياغته بالأسلوب الذي يناسب الخطبة.

أو أن يختار كتابًا صغيرًا أو رسالة مختصرة لعالم موثوق، فيلخّصه من المباحث العلمية الدقيقة والتوسع الذي يختص به طلاب العلم، ويعيد كتابته بأسلوب خطابي يناسب كافة العقول والمستويات الفكرية، فإن ذلك من السبل الناجحة لاختيار موضوع يهم الناس، كما أنه يسهل عمله حتىٰ علىٰ الخطيب الذي يعاني ضعفًا في طلب العلم.

ومن نعمة الله سبحانه: أن كثيرًا من العلماء المعاصرين كابن باز وابن عثيمين قد كثرت مؤلفاتهم، وجمعت رسائلهم في مجلدات متسلسلة

كمجموع فتاوىٰ ابن باز وفتاوىٰ ابن عثيمين، فلو علىٰ سبيل المثال أردت أن تخطب عن أحكام الجنائز أو عن أحكام الحج أو فضل التوحيد وبيان العقيدة الصحيحة، فما يكلفك الأمر سوىٰ أن ترجع إلىٰ الرسالة المختصة بهذا الشأن الموجودة في ذلك المجموع أو المطبوعة مفردة، فتلخصها وتطرحها بأسلوب سهل مبسط يناسب مستوىٰ الجميع.

وكم هو جميل أن يجعل الخطيب له أصلًا في كل فنٍّ ينطلق من خلاله إلىٰ كتابة خطبته ثم يتوسع به ويختصر علىٰ حسب مقتضىٰ الحال، ولكن بشرط ألا يطيل إطالة توقع صاحبها في مخالفة السنة، وتؤدي إلىٰ استثقال الناس لخطبته.

قال ﷺ: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا**»[1].

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (١٤٣٧).

النظر في واقع الناس وعلاجه علاجًا شرعيًّا

يحسن بالخطيب أن يكون ملمًّا بواقع الناس، فإن ذلك مما يعينه علىٰ نجاح رسالته السامية، ولابدَّ له من إمعان النظر في واقعهم -لا سيما الشريحة التي تحضر عنده أو التي يعيش بينهم- وأن يقدم الحلول الشرعية لما يطرأ عليهم من القضايا.

فمعرفة الخطيب مثلًا بما يرِد علىٰ الناس من الشبه، وتناقلهم لها فيما بينهم يدفعه لرد تلك الشبهات والقيام برسالته التوعوية، لاسيما في هذا الزمان الذي كثُر فيه التلبيس والشبهات خصوصًا في مسائل العقيدة مما يجعل المسلم دائم التيقظ لها حتىٰ يدفعها عن إخوانه المسلمين، وهذا من أعظم الجهاد.

قال يحيىٰ بن يحيىٰ: «الذب عن السنة أفضل من الجهاد»[1].

كما ينبغي للخطيب التبصر فيما يقع فيه مَن حوله من المخالفات الشرعية وأن ينبههم علىٰ ذلك برحمة ورفق، حتىٰ يستشعروا منه النصح لهم والخوف عليهم من مخالفة الشريعة، فإن ذلك له الأثر البالغ ولو علىٰ المدىٰ البعيد.

---

(١) رواه الهروي في «ذم الكلام» (٦/ ٤٠ رقم ١٠٨١).

والخطيب الموفَّق هو الذي يستشعر هموم من حوله وآلامهم، ويعالج قضاياهم الاجتماعية والسلوكية والأخلاقية مِن تفككٍ أسري وعقوقٍ وفسادِ التربية، والطلاق وما يترتب عليه من تشتت الشمل وضياع الأبناء، وهكذا.

وكلما كان الخطيب أكثر غوصًا في مشاكل الناس وهمومهم، وعالجها علاجًا شرعيًا فقد فاز بالأجر وظفر بالغنيمة، فإنه لا يلزم أن نضع أمامنا قاعدة، وهي إما أن يهتدي الناس هداية تامة، أو أننا نستشعر الملل، ونحس بالضجر الذي يدفعنا إلىٰ التخاذل عن تبليغ الحق، فإنه متىٰ أخذ الناس بشيءٍ من الحق وعملوا به فهو خيرٌ وفضل، ونرجو أن يكون قائدًا لهم إلىٰ كل خير ودافعًا لأن يأخذوا بغيره من العلم والعمل، فإن الحسنة تقول: أختي أختي.

وأوصي إخواني الخطباء: بالاهتمام بإخوانهم، والتألمِ لمصابهم واستشعارِ ذلك، فإن هذا يدفع بالمصلين لمحبة خطيبهم ومعلمهم فيتقبلون ما يطرحه بين أيديهم.

ولابدَّ للخطيب أن يتخلص من الجُمود الشخصي، وأن يتخلص من قاعدة: «لا أرىٰ لا أسمع لا أتكلم»، ولا يتعامل بها مع إخوانه المسلمين، فإن هذا دليل الجفاء والغلظة، وليكن له في رسول اللهﷺ، وصحابته الأطهار الأسوةُ الحسنة، فقد كانوا قمة الوفاء والتواضع، ولولا ذلك لما أقاموا دعوة، ولا بلغوا مجدًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال ﷺ: «**حُرِّم علىٰ النار كل هين لين سهل قريبٍ من الناس**»(١).

وأَولىٰ من اتصف بذلك هم الدعاة الذين عملوا بتلك الوظيفة السامية وهي الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

هذا وقد جاء في السنة ما يشهد لما ذكرناه من النظر في واقع الناس وما يلم بهم من الأحداث، وإيجاد الحلول المناسبة لذلك.

فعن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأىٰ بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذَّن وأقام فصلىٰ ثم خطب فقال: «**تصدق رجلٌ من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره**، حتىٰ قال: **ولو بشق تمرة**».

فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتىٰ رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ حتىٰ رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله**

(١) رواه أحمد (٣٩٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٨).

أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

كما ينبغي للخطيب أن يعالج المنكرات التي تضج فيها المجتمعات الإسلامية، وأن ينبه المسلمين علىٰ ما يحصل من الانحراف الأخلاقي، ويبيِّن لهم أبعاده وأثره علىٰ الأسرة والمجتمع.

والذكي من الخطباء هو الذي يلحظ الشرَّ أول قدومه، ويعرف أبعادَه ومراميه فيحذر منه أول إقباله، فإنَّ الفتن إذا أقبلت عرفها العالم، وإذا أدبرت عرفها العالم والجاهل.

هذا وإنني أنبه أنه ليس من الغَوص في واقع الناس أن نتحدث الأحاديث التي لا تنبغي علىٰ المنبر وفي بيت من بيوت الله بحجة الحديث عن الواقع، فإننا نعني بالواقع ما له أثر علىٰ المسلمين في تصحيح عقيدتهم وسلوكياتهم وأخلاقياتهم، أما ما يفعله بعض الخطباء من الأحاديث التي لا تليق بالمنبر، والخضوع لرغبات الناس، والتكلم علىٰ حسب ما يهواه الحضور حتىٰ لو خالف رسالته -وربما مبادئه- فهذا من الاستخفاف بهذه الرسالة العظيمة، وعدم إعطائها قدرها.

كما أن التكلم بذلك الواقع ومعرفتَه ليس مما يكون له أثرٌ في الأحكام

(١) رواه مسلم (١٦٩١).

الشرعية فلا حاجة لإشغال الناس فيه دون عائدة ولا فائدة تعود عليهم من جراء معرفته.

مثال ذلك: أن يقصَّ لهم حادثة انقلاب في بلدٍ أجنبي، أو زواج مطرب ماجنٍ بممثلةٍ فاسقة ونحو ذلك، فهذا من الواقع الذي لا تفيد معرفته، ولا يضر الجهل به، وهو مما يجب أن تُنَزَّه بيوتُ الله ومنابرُ المساجد عن ذكره فيها.

* * *

مهارات الإلقاء

لابد للخطيب إن أراد لخطبته التميز، أن يتدرب علىٰ كيفية الإلقاء ويحاول إتقان ذلك، وإن من أعظم الأسباب التي تعينه علىٰ ذلك: إدامة النظر في الكتب التي تَميَّز أصحابها بحلاوة الأسلوب وعذوبة الطرح واختصار العبارة، كمؤلفات الإمام ابن القيم والعلامة السعدي، وتكثيف الاستماع للخطباء المتميزين الذين عُرِفوا بلباقة الألفاظ مع اختصارها، وجمال العرض مع التزام السنة في طريقة الطرح.

ومن أجل أن يكون الإلقاءُ متميزًا والطرحُ ناجحًا، كان من اللائق مراعاةُ جملةٍ من القواعد وأخذُها بعين الاعتبار، ومحاولةُ تطبيقها علىٰ الخطبة حتىٰ تكون متميزة، أو علىٰ الأقل ناجحة، ومن هذه القواعد:

أولًا: التدرجُ بالصوت:

من الأخطاء التي يقوم بها بعض الخطباء: أنهم وفي أثناء طرحهم لموضوعٍ معيَّنٍ يستهلونه بصوتٍ مرتفع، وهذا وإن كان مناسبًا لبعض موضوعات الخطب، إلا أنه يُدخل شيئًا من الملل في نفوس المستمعين، ولذلك كان الأحرىٰ بالخطيب أن يستَهلَّ خطبته بصوتٍ هادئٍ، ثم بعد ذلك يرفعه علىٰ حسب التدرج بالموضوع.

كما أنَّ لنوعِ الخطبة اتصالًا مباشرًا ووثيقًا في مقدار الصوت ومستوىٰ ارتفاعه، فمن غير اللائق أن يجعل الخطب كلها علىٰ مستوىٰ صوتي واحد، فثمة فرقٌ كبيرٌ وبَونٌ شاسعٌ بين خطبةٍ في مسألة فقهية، وأخرىٰ في التوحيد أو السيرة، فكلٌّ موضوع له ما يناسبه من درجة الصوت وارتفاعه.

ثم وإن قلنا إنَّ موضوع خطبة ما يناسبه رفع الصوت، فلا ينبغي أن تكون الخطبة علىٰ مستوىٰ واحدٍ من الارتفاع، فبعض الجمل تحتاج إلىٰ خفضِ صوتٍ عندها حتىٰ يستشعر المستمع ما يُلقىٰ إليه، وبعض الجمل تحتاج إلىٰ رفع صوت أعلىٰ مما سارت عليه الخطبة، وبعض الجمل تحتاج إلىٰ أن يسكت عندها الخطيب وكأنه ينبه المستمع إلىٰ شيءٍ ما يختلف عن سائر الخطبة، ومثل هذا يستفاد من التجارب وتتبع أعمال الآخرين، مع التنبيه علىٰ وجوب التزام السنة في ذلك، لأن بعض الخطباء يبالغ في ذلك حتىٰ يخرج في خطبته عن الهدي النبوي.

ثانيًا: استعمال ضمير الغائب:

مما ينبغي أن يعلمه الخطيب الناجح: أنه حين يعالج موضوعًا معينًا لاسيما المنكرات الشائعة في المجتمعات أن يتجنب استعمال ضمير المخاطب، خصوصًا إذا كان قد اتصف بهذه المنكرات شريحة ممن يصلون عنده، فاستعمال ضمير المخاطب يدفعهم إلىٰ فهم ذلك كنوع من الإهانة لهم، ومن دواعي نجاح الخطيب أن يستعيض عن ذلك باستعمال ضمير

الغائب، فإنه أدعىٰ للقبول وإن كان المخاطب قد ارتكب المنكر الذي يقوم الخطيب بمعالجته.

فلا يحسن بالخطيب أن يقول: أنتم تأكلون الربا وتحاربون الله، ولو أنه قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا يحاربون الله، فإن العبارة الثانية قد أدَّت نفسَ الغرض المراد ولم يجرح بها أحدًا ممن حضر عنده وإن كان آكلًا للربا.

كما أن استعمال الخطيب لضمائر الغائب يفتح أمامه المجال لمعالجة كثير من المنكرات دون تحرج، لأنه يتكلم عن شخصٍ غائب ليس له وجود من ضمن الحضور وإن كان هو في حقيقة الحال موجودًا، ولكنه بهذا الأسلوب لا يحس بالحرج وكأن الأنظار تتجه إليه، كما أنَّ في ذلك فتح باب له ليتوب، والهداية بيد الله سبحانه.

ثالثًا: طول الخطبة وقصرها:

من المعلوم لدىٰ الخطيب الموفَّق: أن قصر خطبة الرجل وطول صلاته علامة علىٰ فقهه، وبهذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ حيث قال: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه**»[1].

ولكن مما ينبغي التنبه له في هذا المقام: ألا نجعل ذلك ذريعةً لاسترضاء الناس بجعل الخطبة علىٰ وتيرة واحدة من القصر؛ بحيث يجعل الخطيب له

(١) رواه مسلم (١٤٣٧).

وقتًا مقدرًا لا يتعداه حتىٰ يسترضي من يصلي عنده أو ليستقطب الناس إليه، فإنه وإن كان قصر الخطبة موافقًا للسنة لكن لابدَّ أن نعلم أن بعض التقصير يجعل موضوع الخطبة ضعيفًا مهلهلًا غير مترابط.

ولذا فيقال: من الجميل مراعاة السنة بتقصير الخطبة، ولكن ليس للحدِّ الذي يخل بالموضوع ولا يعطيه حقه، والخطر الأعظم أن يكون الدافع للتقصير ليس طلب السنة، ولكن مراعاة أهواء المصلين أو وضعهم الاجتماعي، فإنه من أقبح القبيح أن تجد بعض المصلين يتجشّم العناء لبعض المساجد البعيدة عن داره وإذا سئل عن ذلك قال لأنه لا يطيل، وهذا يعني أنه لم يذهب للبحث عن فائدة ولكن حتىٰ يزيل هذا الحمل عن عاتقه بأسرع وقت.

ومن هنا نعرف الخلل الذي تسلل إلىٰ خطب كثير منا حتىٰ بدءوا يتنافسون مَن ينتهي قبل الآخر، وليس مَن يُفيد الناس بما يصحح أعمالهم وعباداتهم.

وفي المقابل تجد من الخطباء من يُطيل الخطبة فوق المألوف، بل وبخلاف المألوف، فيقع في مخالفة السنة من باب، ومن باب آخر تدلُّك خطبته علىٰ أنه ليس بطالب علم ولا يحترم عقول من يحضر عنده، لأنك تحكم عليه لأول وهلة وهو يخطب أنه لم يحضر لخطبته، فهو ينتقل من موضوعٍ إلىٰ موضوع وحَدَثٍ إلىٰ حدث، دون ترابط بين العناصر ولا اتزان في الطرح.

ومثل هذا الفعل جناية علىٰ المنبر وسبب لتنفير الناس من الخطب، أو أنهم يرون مع مرور الأيام أنَّ حضورهم فقط لإسقاط الواجب، أما الاستفادة فلم تكن لهم بحسبان، لأنهم يعرفون أنهم سيصلّون عند خطيب غير أمين، لم يكلف نفسه أن يحضِّر لهم ما يتكلم به لو لعشر دقائق ولكن بفائدة، فأيُّ إحباط يدخل علىٰ نفوس كثير من المسلمين بسبب هذه النوعية المجازفة من الخطباء.

وقد يدفع بعض الخطباء للتطويل محاولة إثبات النفس، فتجده يتكلم بكل شيء وكأنه في ساحة عرض للمعلومات، وربما ذكر أرقام الصفحات لبعض الكتب التي استشهد بها من حِفظِه، كلُّ ذلك لبيان أنه مطَّلعٌ، ولا يدري أنه بإطالته للموضوع قد جمع بين أمرين: أنه أدخل علىٰ الناس الملل والسآمة، والآخر: أن الناس لم يحفظوا من كلامه شيئًا، لأن الكلام إذا طال أنسىٰ آخرُه أوله.

وقد أخذني العجب حين صليت الجمعة في بعض البلدان من إطالة بعض الخطباء حتىٰ يتجاوز الساعة إلا ربعًا، بل وفهمت أن كثيرًا من الخطباء يرىٰ أن الارتجال وإطالة الخطبة من علامات التميز، ولما تتأمل ما يتكلم به أكثر الخطباء في مثل هذه البلدان فإذا به موضوع يصح أن يعبر عنه بقول القائل:«من كل وادٍ قطرة»، فلا تملك بعد خروجه إلا أن تأسىٰ لحال كثير من المسلمين حين يقوم بتوجيههم في أعظم اجتماع وعلىٰ أبرز

الوسائل الدعوية -وهو المنبر- أمثال هؤلاء الخطباء.

قد يقال: إن الخطباء يحتاجون إلىٰ تأهيل ومعرفة وزيادة صقل للمواهب.

وأقول: قد يكون هذا مطلوبًا، لكن المطلوب الأول والدافع لنجاح الخطيب في هذا الباب هو أن يعرف أنه يؤدي وظيفةً من أشرف الوظائف ورسالةً ساميةً عاليةً، وأن يحتسب في هداية الناس حتىٰ إذا مات استمر أجره بعده.

ومن أجل أن يحصل الخطيب علىٰ ما يصقل موهبته وينميها فإنه لابدَّ له أن يعمل بالسنة النبوية في إطالة الخطبة وتقصيرها دون خلل ولا شطط.

وأنبه إخواني الأحباء الخطباء الأفاضل أن مما يجمع لك خطبتك حتىٰ تؤدي رسالتك علىٰ الوجه الأكمل، الابتعاد عن الحشو الزائد الذي لا ينفع سامعَه، ولا يضرّ تاركَه، واللهَ اللهَ في السنة فإنها مفتاحٌ لكل خير وهدىٰ وسداد ورشد.

رابعًا: ترك الارتجال:

ينبغي للخطيب الموفَّق أن يتجنب ارتجال الخطبة إذا لم يكن يحسن ذلك أو يتقنه، فليس عيبًا أن يكتب الخطيبُ خطبته ويقرأها، فالمهم إيصال الفائدة للمسلمين، وهانحن قد رأينا علماءَ أجلاءَ إذا خطبوا كتبوا خطبهم وقرءوها علىٰ الناس، وقد جزاهم الله ﷻ علىٰ إخلاصهم أن بقيت خطبهم بعدهم ينتفع بها القاصي والداني، ولو أنهم لم يكتبوا ما بقيت بعدهم.

فقد يدفع بعض الناس إلىٰ ارتجال الخطبة مراءاة الناس حتىٰ لا يقولوا: فلان يقرأ، لا يحسن أن يرتجل كفلان، ونسي هذا أنَّ هذه الطباع والصفات أرزاق مقسومة من عند الله سبحانه، وكم رأينا ممن يرتجل في خطبته بسبب استنكافه عن القراءة وبحجة أنه يحسن ذلك فإذا به قد دعاه ذلك مع مرور الزمن إلىٰ اعتماده علىٰ نفسه، وقد داخله الغرور فإذا به يقوم علىٰ المنبر دون تحضير فإذا به يتعرض لجملة من المواضيع في موقف واحد، ولا شك أن هذا من الاستهتار.

وقد يكون الرجل حريصًا علىٰ الخير مخلصًا في نيته، ولكنه من النوع الذي إذا غضب لم يتمالك نفسه فيؤدي به ذلك إلىٰ الشطط فيما يطرحه، أو أن يتكلم بكلام يحسب عليه بين يدي الناس، حتىٰ لربما صار عامل تنفير لهم، ومثل هذا إن علم من نفسه أن الموضوع الذي سيطرحه من المواضيع الحساسة التي لربما تحمله غيرته علىٰ أن يتكلم فيها بما يخرجه عن المألوف، فالأفضل له ألا يرتجل.

وليثق أخي الخطيب أن الناس تميِّز الغثَّ من السمين، والرديء من الجيد، ويعرفون من اجتهد في إعداد خطبته ومَن لم يكلِّف نفسه بالتحضير لها لدقائق، فإذا تقرر ذلك، علم الخطيب الموفَّق أن الناس تنظر إلىٰ مقدار الفائدة التي استفادوها من ذلكم الخطيب، وليس النظر له هل ارتجل أم قرأ مما كتب.

وفي العموم فمن كتب خطبته وزاد ونقص وحذف وأضاف حتىٰ تكون الخطبة مترابطة العناصر متصلة الأطراف، فإنه سيجد لخطبته أبلغ الأثر، ويرىٰ أن ما كتبه وقرأه أعظم نتيجة مما لو ارتجل.

خامسًا: الشخصية المستقلة:

إن من أسس نجاح الخطيب في مهمته العظيمة: أن تكون له شخصيته المستقلة المتميزة، ومن الوسائل التي تثمر له تلك الثمرة اليانعة ابتعاده عن تقليد الآخرين، فلا يقوم الخطيب وهو علىٰ المنبر وجل اهتمامه وأكبر همه أن يقلِّد الخطيب الفلاني، بل يكون الهمُّ الأعظمُ له هو كيف يبلِّغ الدعوة إلىٰ الناس جميعًا حتىٰ يفوزوا بالخير والظفر.

ولا مانع أن يستفيد الخطيب من غيره من العلماء والدعاة شريطة أن يكونوا ممن يتصفون بالتزام السنة، ولكن لا يدفعه ذلك إلىٰ تقليد غيره حتىٰ بالسكتات والوقفات ونبرة الصوت، بل وحتىٰ في طريقة البكاء، فإن التأثير الذي أثره من تقلِّده في الناس ليس لما اتصف به من تلك الأوصاف، ولكن لما فتح الله عليه من تقبُّل الناس له.

فالإخلاص لله والمتابعة للنبيﷺ هما اللذان يفتحان لك الطريق لتقبل الناس لك، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن سبحانه يصرفها كيف يشاء.

ومن علامات استقلال شخصية الخطيب: أن يكتب خطبته بنفسه، وأن

يعيش معها بنَفَسه، وأن يلقيها بعد كتابته -بينه وبين نفسه- قبل قراءتها علىٰ المنبر بنَفَس الخطيب وأسلوبه، فيصحح ما فيها من الأخطاء ويشكلها نحويًّا حتىٰ يستقيم بها لسانُه، ويضيف إليها ما يحتاج إلىٰ إضافة، ويلغي منها ما تكرر ذكره وما لا يحتاج إلىٰ إيراد، كما يعرف المواضع التي تحتاج إلىٰ رفع الصوت وما يحتاج إلىٰ خفضه، ومتىٰ يقف وأين يصل الكلام بعضه ببعض، وهكذا.

حتىٰ إذا قرأها علىٰ المنبر لم يميز من استمعها ما إذا ما كانت مقروءة أو مُرتَجلة، فهي خطبته يعيش معها بروحه ونَفَسِه وقلبِه وكلِّ مشاعره، وهذا هو الفرق بين ما يكتبه هو وما يقرؤه من خطبةٍ قد كتبها غيره.

ومن خلال هذا المنطلق ينبغي علىٰ الخطيب ألا يقرأ خطبة قد كتبها غيره كما هي دون تعديلٍ إلا في أضيق الأحوال، فإذا احتاج إليها فليحاول أن يقرأَها بينه وبين نَفسه، وأن يعيش معها بنَفَس من كتبها حتىٰ تكون مؤثرة.

لأننا نعرف أن بعض إخواننا وإن كان طالب علم مبرز إلا أنه لم يفتح الله عليه في كتابة الخطب، فيقال لمثل هؤلاء الأفاضل: لا بأس أن يقرأ خطبة لغيره إذا احتاج إليها، ولكن ينبغي له -والحال هذه- أن يقرأها ويكرر قراءتها حتىٰ يتقنها، ثم لعله من خلال قراءته لها يكتشف أنها تحتاج إلىٰ حذفِ شيءٍ لا تعلُّق له في زمانه أو بلده أو لكونه لا يتناسب وأسلوبَ حياة المجتمع الذي يعيش فيه، ونحو ذلك.

والأفضل في حقِّ من احتاج إلىٰ خطبة غيره أن يستفيد منها مع تغيير ما يلزم إن استطاع ذلك، وتكرير قراءتها قبل أن يعرضها علىٰ المنبر، فإنه إذا قرأها وكان قد أعاد النظر فيها، أصبح وكأنه هو المعِدُّ لها أصلًا، فيكون لذلك أثرٌ بإذن الله، من أجل ذلك فلابدَّ للخطيب من تميز شخصيته حتىٰ ولو استفاد من غيره.

ولا يفوتني هنا أن أنبه علىٰ: أنَّ بعض إخواننا -غفر الله لهم- قد يأخذ خطبةً من أحد كتب الخطب أو أحد المواقع الإلكترونية لعالمٍ ما أو داعيةٍ من الدعاة، ثم بعد ذلك ينشرها في موقع خاص يحمل اسمه، أو في مجموع خطب منسوب إليه، أو أن يعطيها لمن ينشرها علىٰ أحد المواقع وينسبها إليه، وهو قد أخذها من غيره دون تعديل، أو ربما بتعديل يسير في بعض الأحرف والضمائر، وهذا ليس من الأمانة العلمية.

نعم نحن نعلم أنَّ أجر الكاتب الأول ثابت لأنه هو الدال علىٰ الخير أصلًا، لكن في عدم نسبتها إليه تفويتٌ لحظِّه من دعاء الناس، أو ربما تكون هذه الخطبة مما تدفع عنه شبهة تثار علىٰ دعوته، فتسهم في الذب عنه، وغير ذلك من الأسباب.

فالواجب علىٰ الداعية الناصح: ألا يتشبع بما لم يعط، فقد قال تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨].

وقال ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[1].

فنسأل الله ﷻ أن يرزقنا الصدق في الأقوال والأعمال، وفي دعوة الناس ونصحهم وإرشادهم.

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٤٨١٨)، ومسلم (٣٩٧٢).

الخاتمة

لقد حاولت في هذه الرسالة أن ألتمس أبرز الأسباب التي تعين خطيب الجمعة في نجاح رسالته، ولا أدعي أنني أحطت بكلِّ ما تعظُم الحاجةُ إليه في هذا الباب، ولكنه جهد المقل الذي يأمل أن تكون هذه الكتابة مما تفتح لقارئها تلمس غيرها من الأسباب، فربَّ مبلَّغٍ أوعىٰ من سامع.

هذا وإنني أوصي إخواني باحتساب الأجر في تعليم إخوانهم المسلمين ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، وتجنّبهم ما يشكل ويجعل أمرهم ملتبسًا عليهم، وليثق الخطيب المبارك أنَّ مَن فتح الله عليه باب العلم الشرعي، فكمَّله في تعليم الناس ما يحتاجون إليه فقد حاز الخير والفضل، كما أنه دليل علىٰ أن الله قد أراد بصاحبه خيرًا.

وعليهم بإخلاص النية لله ﷻ في دعوتهم وتعليمهم الناس، والحرص علىٰ تتبع آثار النبي ﷺ فإنهما أساس قبول العمل، وليحرص علىٰ أن يجعل هذا التعليم الذي يبذله للناس مما يدَّخره بين يدي الله ﷻ، فإن أراد أن يبتهج به عند لقاء الله تعالىٰ، فلابدَّ أن يكون خالصًا لوجه الله، وعلىٰ سنة رسول الله ﷺ وطريقته وسيرته، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا الإخلاص والقبول والتوفيق والسداد، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

المقدمة.. ٥

تحقيق الإخلاص.. ٩

التذللُ لله والتبرؤُ من الحول والقوة.. ١٥

قبل ارتقاء المنبر.. ١٨

الناسُ أمانةٌ في عنقك.. ٢٠

التوسط في الأسلوب.. ٢٢

اللغة البسيطة.. ٢٤

تحضير الخطبة.. ٢٧

مراعاة الوحدة الموضوعية للخطبة.. ٣١

تنويع الخطب.. ٣٣

تجنب ردود الأفعال.. ٣٨

تنزيه المنبر عن الخوض فيما لا يليق.. ٤٠

الاستماع لملاحظات المصلين والاستفادة منها.. ٤٤

العناية بصحة الدليل وصحة الاستدلال ٤٧
تنمية المعلومات وتنوعها ٥٥
النظر في واقع الناس وعلاجه علاجًا شرعيًّا ٥٧
مهارات الإلقاء ٦٢
* **أولًا**: التدرجُ بالصوت ٦٢
* **ثانيًا**: استعمال ضمير الغائب ٦٣
* **ثالثًا**: طول الخطبة وقصرها ٦٤
* **رابعًا**: ترك الارتجال ٦٧
* **خامسًا**: الشخصية المستقلة ٦٩
الخاتمة ٧٣
الفهرس ٧٥

* * *